رحلة الى الشام

(١)

في يوم ٣١ يوليو سنة ١٩١٩ عبرنا قنال السويس عند القنطرة على جسر منصوب على الترعة. والقنطرة طريق القوافل منذ القدم بين الشام وسائر الشرق الادنى وبين مصر. والمسافة بين العريش والقنطرة على الجمال خمسة ايام فقطعناها بسكة الحديد في بضع ساعات. وهذا الطريق عينهُ هو الذي سار عليهِ اخوة يوسف الصديق عند هبوطهم مصر وسار عليهِ ايضاً سيدنا المسيح يوم كان طفلاً وهرب بهِ يوسف ومريم البتول الى مصر من وجه هيرودس

والشام ومصر توأمان لا يستغني الواحد منهما عن الآخر ولغتهما واحدة وعاداتهما واحدة تقريباً. وقد كانت الصحراء بينهما حاجزاً يحول دون تمازجهما وتواصلهما برًّا فجاءت سكة الحديد مزيلة لذلك الحاجز مقربة للمسافة المترامية بينهما برًّا. وينبئنا التاريخ بان ملكاً واحداً حكم القطرين في ازمنة مختلفة

وقد تفنن الانكليز في حروبهم شدة عنايتهم بالنقل والمواصلات فانها عندهم منظمة احسن تنظيم. ومن اعظم ما فعلوا في هذه الحرب في هذا الميدان جرّ مياه النيل من افريقية الى اسيا محافظة على صحة جنودهم وراحتها في هذه الصحراء المقفرة. اما الاتراك فساقوا جنودهم فيها واهملوا امر راحتهم وتوفير الطعام لهم فكانت العاقبة ما رأينا

بلغنا العريش في اليوم الثاني من رحلتنا فشاهدنا نخيلها المشهور وكان يوم وصولنا اليها سوق الجمعة واكثر ما يباع فيها الجمال التي يرسلها التجار الى مصر. وسكانها اشبه بسكان فلسطين منهم بالمصريين وهم يتاجرون مع عرب الصحراء ومع مصر والشام

ومن العريش سرنا الى رفح وهي آخر حدود مصر الآن كما هو معروف وكانت الحد الفاصل بين مصر وسورية من قديم الزمان. ففي اخبار فتح عمرو بن العاص لمصر سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) ان عمر بن الخطاب ارسل اليهِ كتاباً وهو في الطريق فقضهُ عمرو وهو في العريش وتلاهُ على اصحابهِ وقد جاء فيهِ: اما بعد

فان ادركك كتابي هذا وانت لم تدخل مصر فارجع منها . واما اذا ادركك وقد دخلتها او شيئاً من ارضها فامض واعلم اني ممدك . فالتفت عمرو الى من حوله وقال اين نحن يا قوم . فقالوا في العريش . قال وهل هي من ارض مصر او الشام فقالوا من مصر

وبعد رفع بلغنا خان يونس وفي جواره اراض زراعية خصبة فيها بساتين الصبّير (التين الشوكي) والتين والخضر . والظاهر ان المطر قليل فيها . ويقول الصهيونيون انها من بلاد فلسطين وقد اشترى بعضهم بقعاً في هذه الارض الرملية وهي تصلح لزرع الشعير والبطيخ وغرس الاشجار

ومن خان يونس انتقلنا الى بلع وغزة هاشم . وسهول غزة واسعة يصح فيها زرع الشعير والكتان لان تربتها رملية ناعمة . وقد مررنا حول غزة بكروم التين والعنب والزيتون . وكثير من منازلها مبنيٌّ بالطوب الاخضر وسكانها مسلمون ومسيحيون وهم متفقون كل الاتفاق

والى الشمال والشرق من غزة سهول خصيبة كسهول مصر لكن ينقصها ماء النيل وياما ينقصها . على انهُ يمكن حفر آبار لارواء هذه السهول الواسعة . ولا تعلم تماماً نفقات الوقود لرفع المياه من هذه الآبار

وعند الظهيرة مرّ القطار الذي يتلكأ في وادي جنين وفيه بساتين البرتقال الشهيرة . ثم بلغنا مزرعة صهيونية اسمها شيبوت وفيها تكثر حقول اللوز الحلو . وبعدها وصلنا اللدّ وهي مكان اتصال سكة الحديد اي الذاهبة الى يافا وحيفا والذاهبة الى القدس . وفي جوار اللدّ بساتين من الزيتون قطع الترك اكثرها ايام الحرب واستعملوا حطبها وقوداً لسكة الحديد الحربية . وهذه المنطقة اجود اراضي فلسطين في اعتقادي ولكن مياهها قليل اذ لا وجود للانهار فيها ومطرها نادر ولعلهُ اقلّ في هذا الزمان مما كان في ايام الآباء الاولين بدليل ان الحنطة التي كانت تزرع فيها في عهد ابراهيم واسحق ويعقوب كانت تكفي سكانها وكان السكان حينئذٍ اكثر منهم الآن . والمرجح ان هذه الاراضي كانت مكسوة بالغابات فقضت ايام الحروب الرومانية ولذلك باتت الامطار اليوم اقلّ مما كانت قبلا

والى الشرق من سهول اللدّ جبال اليهودية المشهورة التي امتنع فيها المكابيون

في حروبهم مع الرومان . ولا يمكن ارواء هـذه السهول الاَّ اذا وجد الوقود اللازم لرفع المياه من الآبار بنفقة قليلة ولكن لا يعلم هل تزيد حاصلات هذه الارض كثيراً عن النفقة اللازمة لحفر هـذه الآبار. وقد مررنا بمنازل عديدة للصهونيين فاذا بالترك قد نزعوا سقوفها وسائر ما فيها من الخشب وتركوها خراباً . ولكن العمران اخذ يتجدد بعد الفتح الاخير والمزارع اخذت تزرع

وبعد مغادرتنا اللد بلغنا طول كرم التي اتخذها الترك معسكراً عامًّا لهم وفيها انكسروا ثم تقهقروا تاركين ذخائرهم ولم يقاوموا بعد المعركة التي جرت فيها سوى مقاومة قليلة

ثم وصلنا الى زمارين وهي مستعمرة صهيونية بنيت بمال البارون هرش تحيط بها اراض غاية في الخصب . وهي واقعة جنوبي جبل الكرمل المشهور بحوادثه الدينية القديمة. وينبت في هذا الجبل كثير من النباتات العطرية البرية. وقد استقطر الرهبان الكرمليون المنقطعون في دير هذا الجبل نوعاً من العطر منذ القديم كان يسمى الكرمليت ويباع في جميع انحاء العالم . وفي جوار الجبل ينمو نبات المحمودية وهو نبات يخرج منهُ عصير لبني مسهل يجمعهُ الاهالي ويجففونهُ اقراصاً ويرسلونهُ الى اوربا حيث يدخل في بعض المستحضرات الطبية. وفي اقراص الشكولاتا والبسكويت المسهلة التي تعطى عادة مسهلاً للاولاد شيء من هذا العقار . ويسميهِ الافرنج سكونيا

وحدث في اواخر القرن الماضي ان لورنس ألفنت الكاتب الانكليزي الشهير وزوجتهُ أليس بنيا لهما قصراً على الجبل كتبا فيهِ كتبهما المشهورة عند عارفي اللغة الانكليزية . وكان قصرهما مضيفاً لكل من زار فلسطين من اهل اوربا واميركا . وتوفيت أليس الفنت في حيفا شهيدة المروءة اذ كانت تمرض فقيراً مصاباً بالحمى التيفويدية فاعديت وقبرها هناك معروف. وقبل الفراغ من الكلام عن حيفا لا نرى بأساً من الاشارة الى الكولونل الهندي الذي قتلهُ الاتراك في موقعة طول كرم. فمن كان يخطر على بال ان الهنود يأتون من اقاصي الهند ليساعدوا على انقاذ الاراضي المقدسة من ايدي الترك

الدكتور

يوسف غبريل